خطاب السيد نصر الله الأخير.. إرادة المقاومة المستمرة

في يوم ١٩ أيلول من العام الماضي، ظهر الشهيد السيد حسن نصر الله ليخاطب الأمة في آخر خطاب له قبل أسبوع من استشهاده في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٢٤. وكما في كل خطاب جمع السيد نصر الله بين كل أساليب الخطابة متنقلاً بين الحزم والحكمة والرحمة، حريصاً على مصلحة لبنان والمقاومة وكل القضايا المحقة التي أخذت حيزاً واسعاً من عمله. ولطالما اعتبر الصديق والعدو أن خطاب السيد نصر الله يقدم قراءة شاملة للأحداث وفيه رؤية سياسية لابد من الاطلاع عليها لأنها مهمة في فهم المرحلة والتوجه، حيث كان السيد يحرص على أن يرسم خارطة طريق في كل خطاب يفهم من خلالها الجمهور الأحداث التي تجري وإلى أين ستذهب الأمور. كان السيد نصر الله يزن كل كلمة، ويفكر بكل احتمال، ويخاطب الكيان الصهيوني والدول والمواطنين اللبنانيين والبيئة الحاضنة في آن واحد بأسلوب سهل ممتنع ينتظر سماعه الجميع.

مسؤولية القيادة والحماية

في خطابه الأخير عقب جريمة تفجير أجهزة البيجر، أولى السيد نصر الله أهمية خاصة لشمال فلسطين المحتلة، حيث كانت تتركز عمليات المقاومة الإسلامية خلال معركة إسناد غزة. وطوال هذه الفترة، كان هدف منع إعادة المستوطنين إلى شمال فلسطين المحتلة أحد أهداف حزب الله الأساسية، إذ اعتبر أن معاناة الحرب لن يتحملها أهالي الجنوب وحدهم كما كان في السابق، بل كما نزح أهل القرى الحدودية عن منازلهم، فإنه يجب أن يخلوا المستوطنات. وهذا ما ركّز عليه السيد في خطابه الأخير. وبالفعل، تعرضت المستوطنات الشمالية خلال معركة «أولي البأس» لضربات كثيرة، ما أسفر عن خسائر هائلة في المنازل والبنى التحتية وجعل قسمًا كبيرًا منها غير صالح للسكن.

من بين سطور خطاب السيد نصر الله، يظهر أيضًا شعوره الواضح بالمسؤولية، إذ يدرك أن حياة المدنيين مرتبطة بخياراته وتقديراته، وهذه إحدى صفات القيادة الناجحة التي تتحمل هم الناس ومعاناتهم، ولا تتجاهلها، بل تقدم كل ما تملك في سبيل حمايتها. فقد تكفل السيد، طيلة مسيرته الممتدة على ٣٠ عامًا، بالدفاع عن لبنان ككل وليس فئة أو طائفة معينة. وظهر بوضوح بعد شهادته أن له دورًا كبيرًا في صناعة مكانة لبنان أمام العالم، والحفاظ على سيادته واستقراره ووحدته في مواجهة الفتن، التي صدها مرارًا ومنع وقوعها.

ما يميز كل خطابات السيد نصر الله لاسيما الأخير هو المزيج الفريد بين الحزم في مواجهة التهديدات، والطمأنينة التي حاول تقديمها دائماً للبيئة الحاضنة. وعلى الرغم من التهديدات الصهيونية التي كانت تواجه لبنان حينها، حافظ على هدوئه ووضوحه، مؤكداً أن المقاومة ستقف صلبة أمام أي تصعيد. ما عكس محاولته في تحويل الألم والصدمة إلى قوة معنوية لبيئة المقاومة التي أراد لها دائماً أن تتحلى بالقوة والعزيمة والإيمان ببلوغ النصر. مع الإصرار على أن الإرادة الوطنية لن تنكسر مهما بلغ حجم العدوان.

الداخل والخارج والمقاومة

وجّه السيد نصر الله خطابه الأخير لكل الأطراف، وأفهم العدو أن كل الممارسات التي يقوم بها لن تكون طريقاً لنجاته، بل فخاً وانزلاقاً نحو الفشل. وحث الشعب اللبناني على التماسك الوطني، والوعي بأن قوة لبنان تكمن في تلاحم كل الشارع اللبناني والمقاومة، وأن دماء الشهداء ومواقف الثبات هي رأس الحربة ضد محاولات الاختراق. وأما للمقاومين على الجبهات ولكل من ضحى لأجل حرية وطنه فوجه رسالة دعم معنوي، فيها تثبيت للقيم والاستمرار في طريق الصمود، مع التأكيد أن كل مجهود وكل تضحية لها مكانها ووزنها في المعركة الشاملة.

استحضار الإرث

بلا شك ستظل خطابات السيد نصر الله حاضرة دائماً في كل المحطات لتلهم المقاومين والبيئة الحاضنة، بالنسبة لمحبيه لم يكن السيد مجرد فرد بل هو منهاج يقتدى به. وأثبت حزب الله في الحرب الأخيرة التي خاضها أن السيد نصر الله متجذر في خلفية كل مقاتل على الرغم من غيابه. لذا فالإرادة التي زرعها السيد نصر الله من الصعب أن تكسر وهذا ما اكتشفه الكيان بعد اغتياله حيث تابع حزب الله مسيرته وانتخب أميناً عاماً جديداً في خضم الحرب وواصل استهداف الأراضي المحتلة وأفشل العمليات البرية في جنوب لبنان وصمد أهله لمدة ٦٦ يوماً في ظل حرب همجية استهدفت وجودهم وكل هذا بفضل الإرث الذي تركه السيد نصر الله واستحضره أبناؤه في غيابه.

كم ستنبت الأرض منك!

أظن أننا قطعنا في الأحداث الجسام التي عايشناها في أواخر أيلول المنصرم، مرحلة بلوغ القلوب الحناجر. ما سمعه المرء منّا طيلة سني عمره عاشه الآن حقاً. ماذا أكثر من أن نفقد في أيام قليلة جزءًا وازنًا من قيادة المقاومة، وعلى رأسهم القائد نفسه. وقد سبق هذه الأحداث الجليلة مجزرتا البايجر والأجهزة اللاسكلية.

لا شك أن تقبُّل ما جرى وما زال يجري يحتاج إلى قوة غير عادية، إلى شحذ كل أدوات الصبر والتحدي والصمود. ولكن أبناء مدرسة المقاومة ليسوا بحاجة إلا لأن يقفوا وجهًا لوجه أمام حقيقة تراثهم، وهذا التراث يجب أن يتجلى اليوم حقيقة واقعة لا مجرد شعائر وشعارات. من البديهي أن يستحضر الواحد منا في هذه اللحظات العصيبة مشهد الإمام الحسين (ع) في كربلاء. كان عداد جيش الإمام عليه السلام سبعين رجلاً أو ينوف قليلاً. أكتب الآن وقد بلغ عدد الشهداء السعداء في بلدتي شقراء نحو سبعين، معظمهم واسوا شهداء كربلاء حيث إنهم إما تحت الردم أو في العراء، من دون غسل أو كفن أو تأبين أو صلاة أو عزاء، فأهلهم في أربع جهات الأرض، نازحون قسراً. هناك في شقراء وبرعشيت ومجدل سلم وعيترون وميس الجبل وعيتا الشعب وكفر كلا وبليدا وعيترون وعيناثا وبنت جبيل والجميجمة والصوانة والضهيرة ورامية، وباقي شقائق النعمان العاملية، قضى الأب وابناؤه، والأخ وأخوه أو أخواه، والصهر وعمه والصهران والعديلان والصديقان والأصدقاء...

باتت البيوت التي تخلو من شهيدين أو ثلاثة قليلة. نموذج ٥ شهداء: عائلة الحاج جعفر قصير الذي بدأ بابنه أحمد أمير الاستشهاديين في العام ١٩٨٢، وظل قطار الشهادة يمر في منزله حتى هذه الحرب حيث قدم ابنيه في غضون بضعة أيام، وأحدهما هو صهر سماحة الأمين العام الشهيد نصر الله. ومن الفتى ذي الـ١٦ ربيعاً (مرتضى تميم مثالاً) إلى الشيخ الذي شارف على السبعين (السيد سهيل الحسيني/السيد أحمد).

بات كل منا يسأل نفسه: إلى أين سنعود وما حالنا والكل قد رحلوا؟!

عند كل مأساة وكل وجع وكل آه هناك من يأخذ بأيدينا، يهدئ من روعنا، يتلو علينا من كتاب الصبر والتحمل والثبات، فنركن إليه هادئين مطمئنين. فأينه اليوم؟!

قبل غروب ذلك اليوم العظيم، ٢٧ أيلول ٢٠٢٤، صمّت آذاننا تلك الانفجارات التي لن ننساها، وغطت أعيننا تلك السحب التي اتصلت بين الأرض والسماء. لم ندرك لبرهة ما حصل. ولكن تلك الأصوات وتلك السحب كانت تنبئ بعروج هذا السيد الجليل الذي سكن وعينا وقلوبنا وعقولنا طيلة عقود. إنه الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله. هل حقاً استشهد السيد؟ ومَن مثل السيد كيف لا يستشهد؟! قولوا غير هذا الكلام يا جماعة! سيدنا وعدنا بأن يصلي في القدس، وهو وعدنا بأمور كثيرة، وهو صاحب الوعد الصادق...

نعم، وصاحب الوعد الصادق لا يخلف موعداً مع الشهادة. أكاد أجزم - ولا معلومات أملكها عن الأمر ولكنه اليقين بشخصه - أن سيدنا افتدانا بنفسه. هو علم أن الأرض تضيق بما رحبت، كما يعبر السيد ذو الفقار عن توقعه للحرب المقبلة، ومع هذا، فالسيد لم يغادر الضاحية. كثيرون يتلهون وينشغلون بأسئلة يظنون أنها بلا إجابة: لمَ لمْ ينتقل سيد شهداء الأمة إلى مكان آمن؟ يفترضون أنه خارج لبنان أو على الأقل خارج الضاحية. ربما داخل مدينة بيروت أو في أي منطقة من لبنان تعد أقل خطرًا، بسبب بعدها عن المناطق التي تنشط فيها المقاومة! ولكن، هل كنا نتوقع أن يتخذ سماحته (قده) مثل هذه الخطوة؟ وما الهدف؟ أينجو بنفسه؟ أيعرض أهلنا في تلك المناطق لخطر الاستهداف؟ أيبقى ونقتل؟ حاشا وكلا لهذا القائد المضحي أن يهرب أو يتهرب. لقد ساوى نفسه بآخر مجاهد في أبعد نقطة على جبهة الجنوب أو في البقاع أو في الضاحية أو حتى في أي منطقة من لبنان، حيث كان العدو يلاحق أي مجاهد، وكل مجاهد أصبح استشهادياً، فما بالكم بسيد المجاهدين، سيد المقاومة الذي قال في تأبين الأمين العام الرمز الأول، السيد عباس الموسوي (قده): هذا الطريق سنكمله ولو قتلنا جميعاً. وإن أمة يستشهد أمينها العام ستنتصر لا محالة. وحزب الله أمة المستضعفين، والأمة لا تموت. هكذا بدأ مسيرته ببضعة شبان لا يملكون من العتاد إلا القليل، فقاومت عيونهم كل المخارز التي زرعت في طريقهم. وشهادة سيدهم الرمز الأول السيد عباس الموسوي أطلقت فيهم طاقة وشعلة وهاجة تسنّم سيدهم الرمز الثاني، السيد حسن نصر الله، مسؤوليتها بكل همة وشجاعة وحكمة، فعبر بنا إلى شاطئ النصر والتحرير، واستحال الحزب قوة إقليمية. وهذا بفعل تضحيات كبيرة وقاسية، بدءاً من أبي حسن سلامة والقائد الجهادي الكبير، الحاج عماد مغنية، والسيد ذو الفقار وأبي محمد الإقليم وأبي محمد سلمان، وصولاً إلى الحاج أبي طالب والحاج أبي نعمة والسيد فؤاد شكر والحاج عبد القادر، وبين كل هذه الحقب وحتى اليوم قدمت المقاومة العشرات من القادة والشهداء من قوات النخبة وقوات التعبئة ومختلف التشكيلات. وكان درة تاج التضحيات، درة لبنان الساطعة، السيد حسن نصر الله (قده).

إلا أن كل هذا لم يفت من عضد المقاومة، وكل فرد فيها بدءاً من أمينها العام وطّن نفسه على المضي لنيل إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة. وطوبى لحزب يجمع الحسنيين والمجد من كل أطرافه. طوبى لحزب لم يقبل أن تباد غزة وشعبها الأبي المعطاء من دون أن يبذل الغالي والنفيس في سبيل دعمه والتضامن معه. مع كل ما قدمه أطراف المحور الذهبي من اليمن إلى العراق إلى سورية إلى الجمهورية الإسلامية، من دعم بكل ما أوتوا من قوة.

دم كدم السيد حسن نصر الله لا يذهب هدراً. هو من صنف الدماء التي تملك من المواصفات الروحية والعرفانية والطهارة ما يجعلها وقوداً يحيي كل الأمة من أقصاها إلى أقصاها.

أحضر مواطن ولده المولود حديثاً إلى المشفى حيث كنت أنتظر دوري عند الطبيب، وحين سمعت بكاء الطفل توجهت إلى الوالد بالتهنئة فقال لي: لقد ولد يوم تلقينا نبأ استشهاد السيد حسن نصر الله، فأسميته حسنًا. فكم من حسن سيولد في الأمة ينشد نصر الله إلى يوم كان وعده مفعولاً.

معركة «أولي البأس».. تجسيد زمن المقاومة

تمثل أحداث السابع عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٢٤ الشرارة التي دشنت مرحلة جديدة من المواجهة مع كيان الاحتلال الصهيوني. في ذلك اليوم، وبينما كانت الضاحية الجنوبية تعج بالأهالي الذين يجهزون أطفالهم للعودة إلى المدارس نفذ كيان الاحتلال جريمته التي كانت على دفعتين أولها في ١٧ أيلول وثانيها في ١٨ أيلول. حيث فجر أجهزة البيجر المتواجدة مع المقاومين الذي كانوا في منازلهم أو في الأسواق التجارية والطرقات، ما تسبب باستشهاد وجرح الآلاف من الشباب والأطفال والنساء. وتبع هذه الجريمة سلسلة من الاغتيالات التي كان أبرزها محاولة النيل من القيادة الميدانية، وعلى رأسها الحاج إبراهيم عقيل ومن كان معه من مسؤولي الصف الأول في حزب الله.

لم تتوقف آلة الحرب عند هذا الحد، بل امتدت يد الاحتلال لتقوم بسلسلة من الأحزمة النارية لتهجير قرى الجنوب اللبناني في ٢٣ أيلول وأسفرت عن الكثير من الشهداء فيهم العديد من المدنيين ما دفع أهالي القرى إلى النزوح منها. أما في السابع والعشرين من الشهر ذاته قام الاحتلال بإعلان حربه على كل لبنان باغتيال الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في غرفة العمليات التي كان يشرف من خلالها على مجريات الأمور بالضاحية الجنوبية.

أمام هذا المشهد -الذي قدم باقتضاب-، كان من السهل أن يتخيل البعض أن المقاومة سترتنح أو تُشلّ إرادتها بفقدان رأس قيادتها. لكن ما حدث كان على العكس تماماً حيث عادت المقاومة بعد ١٠ أيام لتنهض وتقوم بالدفاع عن لبنان بقيادة الأمين العام الذي تم انتخابه خلال الحرب الشيخ نعيم قاسم.

صبرٌ وجهادٌ دون يأس

حين أطلق الشيخ نعيم قاسم على هذه الحرب اسم «حرب أولي البأس»، لم يكن ذلك مجرّد شعار تعبوي. بل كان توصيفًا دقيقًا لمرحلة كاملة عاشها لبنان على مدى ٦٦ يوماً متواصلة من المواجهة المفتوحة. وتحمل تسمية "أولي البأس" دلالات كثيرة ففي المعجم القرآني تدل على: أصحاب القوة والصلابة، الشداد في القتال، الثابتون في الميدان. وقد أراد قاسم أن يُسقط هذا المفهوم على واقع المقاومة بعد سلسلة الاغتيالات والاستهدافات، ليؤكد أن هؤلاء المقاتلين وجمهورهم هم الامتداد الطبيعي لذلك النموذج القرآني الذي لا يعرف الانكسار.

ما ميّز تلك المرحلة ليس فقط استمرار العمليات العسكرية ضد الاحتلال، بل قدرة المقاومة على إدارة المعركة رغم غياب القيادة المركزية المباشر. كان الرهان على انهيار البنية الداخلية سريعاً، لكن الإصرار على الاستمرار والصمود حال دون تحقيق مآرب الاحتلال. بهذا المعنى، جسّد المقاومون جوهر "أولي البأس": الصبر في وجه المصاعب، ومتابعة مسيرة الجهاد دون يأس أو كلل. وكذلك البيئة الحاضنة التي جسدت هذا المفهوم بثبات عجيب. هذا الثبات الشعبي هو الذي شكّل الرافعة الأساسية لصمود المقاومة.

إعادة التموضع

اغتيال السيد نصر الله مثّل بلا شك صدمة معنوية، حيث كان محكاً لاختبار عمق التجربة المقاومة وصار نقطة انطلاق لمسار جديد، أثبت أن المقاومة مشروع متجذر في الأرض والناس.

هذا المعنى هو ما جعل تسمية «أولي البأس» يعكس حالة البيئة المقاومة فالبأس هنا ليس فقط في حمل السلاح، بل في القدرة على تحويل المصاعب إلى فرص، ودافع إضافي للاستمرار. لقد سعى الاحتلال إلى اغتيال القيادة ظناً منه أن ذلك سيؤدي إلى شلل تام، لكنه فوجئ بأن القيادة امتلكت القدرة على إعادة التموضع بسرعة، وأن الميدان ظل مشتعلاً طوال ٦٦ يوماً دون توقف.

ملحمة مستمرة

عادةً تكتسب تسمية الحروب أهمية خاصة نظراً لأنها سترسخ في العقل الجمعي ويتم تناقلها للأجيال وهذا ما حققته عملية «أولي البأس» في ترسيخ صورة المقاومة في المخيلة الشعبية. رجال صامدون، ثابتون، شديدو البأس، قادرون على مواجهة عدو يفترض نفسه لا يُقهر. بهذا المعنى، تصبح التسمية هوية يستدل بها على مجريات فترة زمنية معينة.

بعد مرور هذه الأحداث، بات واضحاً أن ما جرى لم يكن مجرد مواجهة عسكرية أخرى، بل ملحمة صمود أثبتت أن المقاومة قادرة على النهوض من تحت الركام، وعلى مواصلة الطريق مهما كان الثمن. تسمية "حرب أولي البأس" جاءت لتختصر هذه التجربة: رجال ونساء صمدوا، جاهدوا، أكملوا الطريق دون يأس، وتحولوا إلى نموذج يُدرّس في الإرادة والإصرار.